

وكان الدمُ الدَّفَاقُ في خديها، والفرحُ الرَاقصُ على وجنتيها،
يكسبها وضاءً ونضارةً، فافتربتُ مني، واستراح رأسها على
صدري، وسرحت بصرها في جنبات السهل الساجي تحت أقدامنا
خفوت عليها، وضمتها إلى صدري، كما تضم الأم وليدها،
وراحت شفتاي تسكبان على سحرها حيناً لازعاً وحياً ناعماً،
وشموراً مُتزعجاً بالحفاصة واللذة والفرح
ما أروع لياليك أيها الحب !

لقد كانت ليلة نديانة بالقبُل نشوانة بالفرح، وكان يخيل إلينا أن
الحب الذي جمع قلوبنا بالودعة، ورؤوسنا بالوئام، محبوب للسفوح،
ويرف في أشعة القمر المصبوح، ويخلع على الدنيا للثناء والثناء،
وكان القمر كالأمير الفُراقق الجميل، حفّت به للفيوم الببيضُ
لترقص أمامه عرايا بدلال وفنور... وكان يريق أشمته على قمم
الجبل فتثير تلك السنديانات الهاربة نحو السماء، ثم ترحف نحونا
بهدهد لتسمع أناشيد الهوى وترى جنون الصبا؛ حتى غمرنا،
وطفت على الحاني والرئي غسبنا. أننا في بحيرة من الأنوار
للشمر. والنفاترة، وأن الكرمات زوارق سكري، وأنا غريقان
في اللجج، تأهنا فوق التبعج، نتمسك للشاطئ فلا نجد،
ونتقرب من الضفة فلا نلقاها... !

وسمنا للشلال يفتي لنا، وانتشر العبير حولنا، وضحك
السهل والجبل لمرآنا، ورفعت للصخور رؤوسها لترانا...
وسكرنا سكرين : سكر هوى وسكر جمال...

بوركت أيها الجبل للقائم كالقارص الأسمر الجميل... !
لقد قال لي بالأمس وأنا أرتو إليه في شحوب الأصيل :
« لقد حفظت ذكرى الحبيبة بين صخوري، وجاء للبشر يرتع
فوق حدودي، وتمايلت الأعشاب على صدري، وتزاحمت
الأزاهير لتطرز سفوحى، وغنت الرعاة باسم فتاتك في متوع
الأصابع وسجوا الأمانى »

لقد حفظت ذكرها... لأن تلك السموع التي ذرقتها
أصبحت منبت الأزاهير، ولأن تلك القبلات التي غنت برنينها
للنسيات أضحت ينهوا للأغريد، ولأن حنين الشفاء ويجوى
للقلوب عادت أناشيد الرعاة !

صمدوح الدببة المنهم

(دمشق)

أوراق مبعرة

من ظلال الهوى (*)

[مهادة إلى الدكتور زكي مبارك]

للأستاذ صلاح الدين المنجد

... قلت لها ونحن نغمي على رؤوس الكروم : « ما ذا
تريدين يا نشوى ... وما ذا تودين ؟ أتريدين ثوباً مذهباً يلعب ،
أم طيباً ناعشاً يسطع ، أم تودين سماع الأناصيص الناعمة التي
ترقص فيها البطولة ، ويغنى في ثناياها الحب ... أم يهفو قلبك
إلى أحاديث النزل ، وتلمظ شفتاك لحر القلب ... ؟ »

قالت : « لا ... ولكنني أريد فتى يكون لي وحدي ؛ بموج
قلبه بجبي ، ونصف روجه لجألي ... ولا يرى في الوجود سوى
ما نفع للثوب اللامع إذا كان الحبيب الذي يراه لا يسكر
لمرآه ... »

وما غناه الأناصيص والأحاديث إذا كان القلب الذي ينظمها
لا يتدفق بالحنين ولا يفتي للحياة ...

نعم متى جاء الحبيب ... جاء كل شيء ... !
ثم انعطفت تقطف أوراق كرمة نسي ... فقلت لها :
— أأنت فتاك الذي تودين ... ؟

قالت : لا ...

قلت : بلى ... أنت تحبينني يا نشوى ... اذكرى الدمع
الذي ذرفته من أجلى ، إذ مستنى الحلى فأصبحت ساهماً واجماً ...
واذكرى الفرحة التي يطل من نظراتك ، ويلهب أعطافك
وقسماتك إذا مالقيني . لا تنكري يا نشوى ... أرايت نهياى بك
وتحناني إليك فجئت تدلين وتبئين ... ؟ أرودى في مشيتك ...
وتمالى إلى أحضان هذه الأعشاب ، أسمك للنشيد الذي نظمته
أصيل الأمس .

فقفزت فوق كرمة متراخية، وارتعت بين أوراقها، وجلست
أنا أمامها، وأنشدتها قصيدتي التي أولها :

يا سادراً هبات يسكى ولا يصحو

(*) انظر العدد ٣٢٢ من الرسالة